الفكر اللغوى الاجتماعى عند الجاحظ

د.ليلة يوسف حميد*

تشغل اللغة الفكر الإنسانى منذ أقدم العصور وحتى الآن. وجهود كبيرة بذلت فى هذا الاتجاه لمحاولة الوصول إلى حقيقة تلك الظاهرة الإنسانية المتغيرة المعقدة وقد تتابعت المدارس والمناهج وتعددت والتقت جميعها على هدف واحد هو معرفة اللغة؛ كيف نشأت ، وكيف تغيرت؟ وكيف تعددت؟ وكيف تحقق لها الاستمرار والاستقرار؟ والحق أن اللغة جديرة بهذا الشغف بل بأكثر منه، لأنها الظاهرة التى خص الله بها البشر دون سائر المخلوقات، كما أنها تمارس يومياً فى شتى مناحى الحياة بطريقة تلقائية عفوية تدعو إلى التوقف والدراسة.

وفى مرحلة متأخرة بدأ العلماء يهتمون بعمل دراسات تأريخية للدراسات اللغوية، تقسمها إلى حقب زمنية كى تلقى الضوء على جهود الأمم والشعوب المتعاقبة على مر العصور مثل كتاب روبنز (Robins) وعنوانه :A short History of Linguistics وقد قسمه إلى فصول يُعنى كل فصل فيها ببيان جهود أمة من الأمم مثل: اليونان والرومان والهنود مروراً بالعصور الوسطى وانتهاءً بالعصر الحديث، وهذا الكتاب لم يشر إلى جهود العرب إلا بسطور قليلة، وحتى هذه السطور غير منصفة وقد تنال من أصالة جهودهم.

ومن أجل ذلك آثرت أن يكون هذا البحث موجهاً لبيان جهود أحد علمائنا الرواد فى مجال الدراسات اللغوية وتحديداً فى مجال "علم اللغة الاجتماعي (Sociolinguistics) إذ ينكر بعض الباحثين أو يستبعد أن يكون للعرب جهود بارزة فى هذا المجال.

وقد لفت الجاحظ انتباهى بحسه اللغوى الرائد ومنهجه الاجتماعي فى دراسة اللغة انطلاقاً من اعتبارها ظاهرة اجتماعية من خلال كتبه: "البيان

* مدرس–قسم اللغة العربية– كلية الآداب بقنا– جامعة جنوب الوادى.

والتبيين" و "الحيوان" و "رسائل الجاحظ". حيث قدم مجموعة من الأفكار والآراء فى الاتصال وفى دراسة الجوانب الاجتماعية للغة.

ومن مناقشة العناصر الآتية يتضح منهج الجاحظ فى دراسة اللغة:

أولاً: أنواع الاتصال عند الجاحظ:

اتصال لفظى : Verbal communication.

اتصال غير لفظى: Nonverbal communication.

ثانياً: حد اللغة ووظيفتها عند الجاحظ .

ثالثاً: عوامل التأثير غير اللغوية فى بناء اللغة عند الجاحظ .

١-البناء الطبقى (Ethno) للمجتمع الإسلامى.

٢-تأثير العمر والمهنة والنوع والعرق فى اللغة.

٣-مستويات الأداء اللغوى عند الجاحظ.

٤- نظرية سياق الحال عند الجاحظ.

رابعاً:صعوبات تعلم اللغة عند الجاحظ :

أولاً: أنواع الاتصال عند الجاحظ

الجاحظ من العلماء المبكرين فى وضع أصول الاتصال وقواعده من خلال نظريته المشهورة فى البيان التى أوضحها فى كتابيه "البيان والتبيين" و"الحيوان" وركز من خلالها على حاجة الإنسان للاتصال بالآخرين "صفة لازمة فى طبائعهم وخلقة قائمة فى جواهرهم، وثابتة لا تزايلهم... فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد لاحتياج الأدنى معرفة الأقصى، واحتياج الأقصى إلى معرفة الأدنى، ومعان متضمنة وأسباب متصلة وحبال منعقدة"(١).

ويُعرِّف الجاحظ البيان الذى يحقق الاتصال بين البشر بأنه الدلالة الظاهرة على المعنى الخفى، وأنه اسم جامع لكل شىء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضى السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان ومن أى جنس كان الدليل(٢).

يتضح من النص السابق أن للبيان عنده وسائل متعددة، اللفظ واحد منها يؤكد ذلك قوله: "فبأى شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع"(٣).

ثم هذا النص الجامع الذى ضمنه كل وسائل الاتصال بأنواعها المختلفة: "وجميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال وتسمى النصبة. والنصبة هى الحال الدالة التى تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات. ولكل واحد من هذه الخمسة صورة مختلفة عن صورة صاحبتها وحيلة مخالفة لحيلة أختها وهى التى تكشف لك عن أعيان المعانى فى الجملة ثم عن حقائقها فى التفسير وعن أجناسها وأقدارها وعن خاصها وعامها وعن طبقاتها فى السار والضار، وعما يكون منها لغواً بهرجاً وساقطاً مطرحاً(٤).

فى هذا النص جمع الجاحظ كل وسائل الاتصال المعروفة حتى الآن، بل رتبها حسب الأهمية بقوله: أولها اللفظ، وباستخدام حرف العطف "ثم". ويمكن تقسيمها وفقاً لمفاهيم علم اللغة الحديث إلى ما يلى:

١-وسائل الاتصال اللفظى (Verbal Communication) وهى:

أ- اللفظ: فالألفاظ هى أرقى الرموز الإنسانية وأوضحها فى تحقيق التواصل والتفاهم، وهى أهم الأعراف الاجتماعية التى تواضع عليها الإنسان وأقرها بالاستعمال؛ فاللفظ هو أول وسائل الإبانة عما فى النفس وأداته اللسان، وهو ما يميز الإنسان عن سائر المخلوقات، قال تعالى:﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ (٥).

وكما قال الجاحظ، فإن مدار الأمر على البيان والتبيين وعلى الإفهام والتفهم. وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد والمفهم لك والمفهم عنك شريكان فى الفضل"(٦).

واللفظ هو اللغة المنطوقة (Spoken Language) التى تقتضى حضور طرفى الاتصال، متكلم (Speaker) وسامع (Listener) فهى "للسامع من بنى الإنسان"(٧).

ويفرق الجاحظ بين اللفظ والصوت أو الصياح الذى يصدره الإنسان بأن "فهمك لمعانى كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت مجرداً. وأبعد فهمك لصوت صاحبك ومعاملك والمعاون لك، ما كان صياحاً صرفاً وصوتاً مصمتاً ونداءً خالصاً، ولا يكون ذلك إلا وهو بعيد من المفاهمة، وعطل من الدلالة. فجعل اللفظ لأقرب الحاجات، والصوت لأنفس من ذلك قليلاً..."(٨).

فجعل الجاحظ اللفظ (الكلام) للقريب، ومجرد الصوت الخالى من الدلالة للبعيد ويفرق فى نص آخر بين ماهية اللفظ، وماهية الصوت؛ فالكلام عنده هو خروج الصوت من الجوف على جهة تقطيع الحرف وإعمال اللسان والشفتين وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس كلاماً"(٩).

وهو يشرح كيفية حدوث الكلام ودور أعضاء النطق (Articulators) مثل اللسان والشفتين ويزيد الأمر وضوحاً قوله:

"الصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذى يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف"(١٠).

وهذا معناه أن الألفاظ أصوات، لكنها تخرج على هيئة مخصوصة وبقوانين محددة تحكم طريقة نطقها، والأعضاء المسئولة عن نطقها، وطريقة تقسيمها وتقطيعها لتمثل وحدات ذات معنى مفهوم، أما الأصوات فهى استخدام لأعضاء النطق فى إصدار أصوات مصمتة وصياحاً صرفاً - كما سماها الجاحظ- دون الخضوع لقوانين أو نظم معينة.

والألفاظ وليس الأصوات هى التى تكون اللغة وتجعلها خصيصة إنسانية يتميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات التى أقدر الله بعضها على إصدار أصوات تشبه حياناً صوت الإنسان ولكن لا نستطيع أن نعدها ألفاظاً.

"وزعم صاحب المنطق أن كل طائر عريض اللسان، فالإفصاح بحروف الكلام منه أوجه، ولابن آوى صياح يشبه صياح الصبيان، وكذلك الخنزير... فإذا صرت للسنانير وجدتها قد تهيأ لها من الحروف العدد الكثير، ومتى أحببت أن تعرف ذلك فتسمع تجاوب السنانير، وتوعد بعضها لبعض فى جوف الليل، ثم احص ما تسمعه، وتتبعه، وتوقف عنده، فإنك ترى من عدد

الحـــروف مـــا إن كـــان بها من الحاجات والعقول والإستطاعات ، ثم ألفتها صارت لغة صالحة الموضوع متوسطة الحال..."[١١].

وقـــد أولـــى الجـــاحظ اللفظ جانباً كبيراً من العناية لأنه أوضح مظاهر الإبانـــة والبـــيان فيوضـــح كـــيف يخرج الكلام، والهيئة التى يخرج عليها، والمـــراحل الـــتى يمر بها من خروج الصوت إلى تقطيع الحروف ثم تأليف الكلمات.

ب- الخـــط :وهـــو ثانى وسائل الاتصال اللفظى وقد عرفه الجاحظ بأنه "الدليل على ما غاب من حوائج الإنسان، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه، جعله خازناً لما لا يأمن نسيانه مما قد أحصاه وحفظه وأتقنه وجمعه وتكلف الإحاطة به"[١٢].

فـــالخط أو اللغـــة المكـــتوبة (Written Language) "هـــو رسوم وأشـــكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما فى النفس، فهو ثـــانى رتـــبة من الدلالة اللغوية، وهو صناعة شريفة إذ الكتابة من خواص الإنســـان التى يميز بها عن الحيوان. وأيضاً هى تطلع على ما فى الضمائر وتتأدى بها الأغراض إلى البلد البعيد، فتقضى الحاجات"[١٣].

ويـــرى الجـــاحظ أن "القلم مكتف بنفسه، ولا يحتاج إلى ما عند غيره، ولابد للسان من أمور منها إشارة اليد...[١٤].

وفـــى ضوء نظرية الاتصال الحديثة يمكن أن نجعل اللفظ والخط ممثلين معـــاً للاتصـــال اللفظـــى مـــن جهة القصد باللفظ الاتصال اللفظى المنطوق، والقصد بالخط الاتصال اللفظى المكتوب[١٥].

ويؤيد هذا كلام الجاحظ نفسه، غير أنه خص كلاً منهما بوظيفة، وشرح الفرق بينهما:

"والكـــتاب يقرأ بكل مكان، ويدرس بكل زمان، واللسان لا يعدو سامعه، ولا يـــتجاوزه إلـــى غيره[١٦]. ثم يذكر مزايا الخط فى قول عبد الرحمن بن كيســـان: "اســـتعمال القلـــم أجـــدر أن يحض الذهن على تصحيح الكتاب من اســـتعمال اللســـان على تصحيح الكلام. وقالوا: اللسان مقصور على القريب الحاضـــر، والقلم مطلق فى الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن، مثله للقائم

الراهـن"[١٧] "ولذلـك قـالوا: القلم أحد اللسانين... وقالوا القلم أبقى أثراً، واللسان أكثر هذراً"[١٨].

غـير أن اللفـظ يمتاز عن الخط بالمواقف الحية، وبالاستعانة بوسائل البيان الأخرى مثل الإشارة ويفتقر الخط إلى المشاهدة وطريقة الأداء والحال وكلها وسائل تعين اللفظ فى جلاء المعنى.

٢-وسائل الاتصال غير اللفظى Non- Verbal Communication وهى:

الإشـــــارة: إحدى وسائل البيان عند الجاحظ، وهى ما يعرف فى علم اللغـة الحديث بالحركة الجسمية (Kinetics)، وقد قسمها الجاحظ باعتبار المكان إلى نوعين؛ الأول للقريب، والآخر للبعيد بقوله: "فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها: رفع الحواجب، وكسر الأجفان، ولى الشفاه، وتحريك الأعناق، وقـبض جلـدة الوجه، وأبعدها أن تلوى بثوب على مقطع جبل، تجاه عين الناظر"[١٩].

وقوله:"فأما الإشارة باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصـان وبالـثوب والسيف. وقد يتهدد رافع السوط والسيف فيكون ذلك زاجراً رادعاً ويكون وعيداً وتحذيراً"[٢٠].

ويشرح الجاحظ أهمية الإشارة:

"وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة وحلية موصوفة على اختلاف فى طبقاتها ودلالتها، وفى الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة فى أمور يسترها الناس عن بعض ويخفونهـا عن الجليس ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ولجهلـوا هذا الباب البتة، ولولا أن تفسير هذه الكلمة يدخل فى باب صناعة الكلام لفسرتها لكم. وقد قال الشاعر فى دلالات الإشارة:

أشـارت بطـرف العين خيفة أهلها إشـارة مذعـور ولـم تـتكلم
فأيقنـت أن الطـرف قد قال مرحبا وأهـلاً وسـهلاً بالحبيب المتيم[٢١]

وتـتدرج الإشـارة بالعيـن أو مـا يعـرف بالاتصال البصرى (eye contact) عـند الجـاحظ مـن الـنظر بالطرف إلى كسر الأجفان إلى رفع الحواجـب، كمـا تـتدرج الإشـارة بوجه عام عن طريق استخدام الجوارح

المختلفة للإنسان وتتصاعد باعتبارها إحدى وسائل البيان فى الإبانة عما يريد المتكلم حتى يستعين بوسائل أخرى خارجية مثل العصا التى تعين المتكلم فى الوصول بالإشارة إلى غايتها "ومن شأن المتكلمين أن يشيروا بأيديهم وأعناقهم وحواجبهم، فإذا أشاروا بالعصا فكأنهم قد وصلوا بأيديهم أيديا أخرى ويدل على ذلك قول الأنصارى:

وسارت لنا سيارة ذات سؤدد ... بكوم المطايا والخيول الجماهر
يؤمون ملك الشام حتى تمكنوا ... ملوكاً بأرض الشام فوق المنابر
يصيبون فصل القول فى كل خطبة ... إذا وصلوا أيمانهم بالمخاصر(٢٢)

وحمل العصا فى يد الخطيب أو المتكلم له دلالة خاصة علاوة على قيمتها الإشارية ذكرها فى قوله: "... أن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للإطناب والإطالة، وذلك شىء خاص فى خطباء العرب ومقصور عليهم ومنسوب إليهم..."(٢٣).

كما أشار الجاحظ إلى التكامل والانسجام والتناغم بين الإشارة والكلام، فهى تسير فى توافق تام معه، لدرجة أنه لو حرم الإشارة لذهبت جل فائدته "والمتكلم قد يشير برأسه ويده على أقسام كلامه وتقطيعه، ففرقوا ضروب الألفاظ وضروب المعانى، ولو قبضت يده ومنع حركة رأسه لذهب ثلثا كلامه، وقال عبد الملك بن مروان: "لو ألقيت الخيزرانة من يدى لذهب شطر كلامى" وأراد معاوية سحبان وائل عن الكلام وقد كان اقتضبه اقتضاباً فلم ينطق حتى أتوه بمخصرة فرطلها بيده فلم تعجبه حتى أتوه بمخصرته من بيته"(٢٤).

وكلام الجاحظ عن الإشارات وأنواعها وأهميتها فى تحقيق الاتصال الناجح يؤكد أن العرب قد عرفوا السلوكيات الحركية المصاحبة للكلام وعرفوا دورها لذلك نجد فى تراثنا من العبارات ما يؤكد ذلك مثل قولهم: أعرض بوجهه، وأومأ بيده، وأشاح بوجهه، وأشار بكذا، قطب جبينه، ...(٢٥).

ومن الشعر:

تقول-وصكت وجهها بيمينها- ... أبعلى هذا بالرحى المتقاعس!

وذكـر الإشـارة أو ما كان من حركة جسمية مصاحبة لكلامها، ومعنى البيت يرتكن إلى حد كبير على هذه الإشارة.

اختلاف الإشارة لاختلاف الدلالة:

تختلف الإشارة تبعاً لنوع الدلالة، فكما أن لكل لفظ معنى خاصاً به فإنه لكل إشارة مغزاها ومعناها الخاص. "فقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجراً، ومانعاً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً..."(٢٦).

فالإشارة بالعين أو الحاجب أو اليد لكل منها دلالة خاصة، وترجع مزايا الإشـارة إلـى أنك تستطيع أن تقصرها على من تريد دون بقية الموجودين "مـن أمور يسترها بعض الناس عن بعض"(٢٧) ومن خلالها يستطيع المتكلم أن يحقق نوعاً من الاتصال الخاص ببعض خاصته دون بقية الحاضرين.

فالإشـارة عنصر من عناصر الكلام عند الجاحظ وعند غيره من علماء العربية وفى أبسط التعريفات النحوية للكلام: "هو ما تحصل به الفائدة سواء كان لفظاً أو خطاً أو إشارة أو ما نطق به لسان الحال." (٢٨)

وعـندما قـال ابـن جـنى "رب مـتحدث لا يحسن أن يكلم إنساناً فى الظلمـة"(٢٩)، كـان يشـير إلى افتقار الكلام لعنصر مهم من عناصره وهو الإشـارة "فلـو كـان استماع الأذن مغنياً عن مقابلة العين مجزئاً عنها، لما تكلـف القائل، وما كلف صاحبه الإقبال عليه، والإصغاء إليه ... ورب إشارة أبلغ من عبارة"(٣٠).

ويـورد الجـاحظ خـبراً عن مناظرة بين إبراهيم بن سيار النظام وأبى شـمر يؤكـد بهـا القيمة التعبيرية للإشارة، حيث كان أبو شمر إذا نازع لم يحـرك يديـه ولا منكبيه، ولم يقلب عينيه ولم يحرك رأسه، حتى كان كلامه إنما يخرج من صدع صخرة. وكان يقضى على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك، وبالعجز عن بلوغ إرادته وكان يقول: ليس من حق المنطق أن تستعين علـيه بغـيره، حـتى كلمـه إبراهيم بن سيار النظام عند أيوب بن جعفر، فاضـطره بالحجـة وبالزيادة فى المسألة، حتى حرك يديه وحل حبوته وحبا إليه حتى أخذ بيديه." (٣١)

فالإشـارة وسـيلة للبـيان والتوضيح أو الاختصار والتلميح يلجأ إليها المتكلم عندما يشعر بحاجة كلامه أو حاجة مستمعيه إليها، وقد حدد الجاحظ

طبيعة العلاقة بين اللفظ والإشارة تحديداً دقيقاً يكشف عن منهج فى نظرية الاتصال متكامل العناصر عندما جعل "حسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان"، "والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هى له، ونعم الترجمان هى عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغنى عن الخط"(٣٢) فهى تعين اللفظ وترجمان عنه، بل وتكون أحياناً بديلاً عنه عند "من عجز لسانه عن الإبانة فى تفسير اللفظ عدل إلى الإشارة والتمثيل"(٣٣)، وفى بعض الأحيان تكون الإشارة قوية فى معناها ودلالتها بما يفوق اللفظ لذلك قالوا: "رب إشارة أبلغ من عبارة" لما فيها من الإيجاز الذى تقتضيه بعض المواقف، لذلك مدحوا الكلام الذى كالوحى والإشارة بقول أبى داوود بن جرير الأيادى:

يرمون بالخطب الطول وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء(٣٤)

إذن فالنظرة ووضع الجسم والإشارة والكلام وكل أشكال الفعل الاتصالى مقويات (أدوات توكيد) للمعنى أو للتركيز على العناصر الأساسية التى تكون الإطار العام للاتصال.(٣٥)

مقارنة الجاحظ بين وسائل الاتصال:

"جعل اللفظ للسامع، وجعل الإشارة للناظر، وأشرك الناظر والسامع واللامس فى معرفة العقد (الحساب)، إلا بما فضل الله به نصيب الناظر فى ذلك على قدر نصيب اللامس. وجعل الخط دليلاً على ما غاب من حوائجه... ولم يجعل للشَامِّ والذائق نصيباً"(٣٦)

وهذا النص يبين مقام استخدام كل وسيلة من هذه الوسائل، كما تضمن ذكر حواس الإنسان الخمسة وهى: السمع، والبصر، واللمس، والشم، والتذوق بعضها يسهم فى تحقيق الاتصال وبعضها لا يسهم فى ذلك.

وقد ركز الجاحظ فى منهجه فى دراسة الاتصال على العين فيقول "على المتحدث أن يحدث الناس ما حدجوه بأبصارهم"(٣٧)

و"من لم ينشط لحديث فارفع مؤنة الاستماع منه"(٣٨) كما يروى عن بعض العرب قولهم: "لا تطعم طعامك من لا يشتهيه. يقول لا تقبل بحديثك

علـــى مـــن لا يقبل عليك بوجهه. وقال عبد الله ابن مسعود: حدث الناس ما حدجوك بأسماعهم ولحظوك بأبصارهم، فإذا رأيت منهم فترة فأمسك..."[٣٩].

وهذا أفضل تعبير عما يعرف بـــ (eye contact) ولذلك قالوا لا تكون بليغاً حتى تكلم أمتك السوداء فى الليلة الظلماء فى الحاجة المهمة بما تتكلم به فى نادى قومك"[٤٠].

"ولـــيس للعقـــد حظ الإشارة فى بعد الغاية" وفرق بين اللفظ والخط بأن "القلـــم مكتف بنفسه، لا يحتاج إلى ما عند غيره، ولابد من بيان اللسان من أمور: منها إشارة اليد، ولولا الإشارة لما فهموا عنك خاص الخاص..."[٤١].

والفـــرق بين الإشارة والصوت أن "مبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت فهذا أيضاً باب تتقدم فيه الإشارة الصوت"[٤٢].

ثم يقسم الجاحظ وسائل الاتصال حسب مداها على النحو الآتى:

"والإشـــارة ينقطع عملها ويدرس أثرها، ويموت ذكرها، ويصير بعد كل شـــىء فضـــل عـــن انتهاء مدى الصوت ومنتهى الطرف إلى الحاجة وإلى التفاهم بالخطوط والكتب..."[٤٣].

هكذا تتباين وسائل الاتصال (البيان) عند الجاحظ بين لفظ وخط وإشارة وعقـــد وتـــتكامل فى الكشف عما فى نفس المتكلم من معانى، كما ربط بينها وبيـــن الحـــواس المختلفة للإنسان مثل: العين والإذن التى تتكامل هى أيضاً لتحقـــيق الفهـــم والإفهـــام بشـــكل يؤكـــد إدراك الجـــاحظ المبكر لما يعرف بالسلوكيات الحركية ودورها فى نجاح الاتصال.

ثانياً: حد اللغة ووظيفتها عند الجاحظ:

عـــندما فرق الجاحظ بين لغة الإنسان وأصوات الحيوانات الأخرى التى تشـــبه لغـــة الإنسان[٤٤] كان يضع حداً للغة بوصفها جهازاً متكاملاً ونظاماً محكمـــاً مقصـــوداً يهدف لتوصيل رسائل تعبر عن حاجات نفسية وشعورية واجتماعية وعقلية وما إلى ذلك مما يحتاج إليه الإنسان.

فالحاجـــة والعقل والاستطاعة شروط للغة الإنسان تفتقر إليها الأصوات الـــتى تصـــدرها بعض المخلوقات الأخرى مثل السنانير "فإنك ترى من عدد

الحروف ما إن كان بها من الحاجات والعقول والاستطاعات، ثم ألفتها صارت لغة صالحة الموضوع، متوسطة الحال...[٤٥].

وإذا كانت اللغة عند فيرث "عنصراً بشرياً فى موقف لغوى ما، وعنصراً موضوعياً يعمل على تحديد نوع الكلمات المستعملة، وعنصراً هدفاً تحدث من أجله العملية اللغوية"[٤٦].

فهى عند الجاحظ نظام اجتماعى يحيا فى مجتمع ويتأثر بكل الأنظمة الأخرى لدى الجماعة الناطقة بتلك اللغة، لذلك يحدد شروط المترجم بما يؤكد تلك النظرة اللغوية بقوله "على الترجمان أن يكون بيانه فى نفس الترجمة فى نفس علمه فى نفس المعرفة، وينبغى أن يكون أعلم الناس بـ"اللغة المنقولة والمنقول إليها" ولابد أيضاً أن "يعرف أبنيه الكلام وعادات القوم وأسباب تفاهمهم"[٤٧].

لأن اللغة أقرب الأدلة وأقواها عند استقصاء الملامح الخاصة لأى مجتمع[٤٨] وهى واحدة من أقوى رموز السلوك الاجتماعى تستخدم فى النقل الطبيعى للمعلومات وفى إرسال رسائل اجتماعية حيوية حول: من نحن؟ ومن أين نأتى؟ ومن الذين نرتبط بهم؟[٤٩].

وقد عبر الجاحظ عن وظائف اللغة المتعددة للتعبير عن الأغراض والحاجات والمواقف المختلفة، ولم يحصرها فى وظيفة واحدة باعتبارها أداة لنقل الأفكار وتوصيلها للغير وهى الوظيفة العقلية للغة "وهو البيان الذى جعله الله تعالى سبباً فيما بينهم ، ومعبراً عن حقائق حاجاتهم، ومعرفاً لمواضع سدَّ الخلة ورفع الشبهة، ومداواة الحيرة ، ولأن أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح الماثلة، والأجسام الجامدة، والأجرام الساكنة التى لا يتعرف ما فيها من دقائق الحكمة وكنوز الآداب ، وينابيع العلم إلا بالعقل الثاقب..."[٥٠].

إذا تأملنا هذا النص نجد أنه يتضمن أكثر وظائف اللغة وهى:

١ -وظيفة اتصالية:

تتمثل فى ربط الأسباب بين أفراد المجتمع فهى سبب فيما بينهم، لأن من الحاجات الفطرية للإنسان التواصل فيما بينهم لتبادل الخبرات والمعارف " فحاجة بعض الناس إلى بعض صفة لازمة فى طبائعهم ..... وحاجاتهم

موصـــول بعضـــها ببعض أيضاً لاحتياج الأدنى إلى معرفة الأقصى واحتياج الأقصى إلى معرفة الأدنى ... أسباب متصلة، وحبال منعقدة .[٥١].

ومـــن النصـــوص القوية التى يؤكد بها الجاحظ الوظيفة الاتصالية للغة قـــول: "بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعانى: المعانى القائمة فى صدور العباد المقصـــورة فـــى أذهـــانهم، والمختلجة فى نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثـــة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة، وموجـــودة فـــى معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخـــيه وخليطه ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما تحيا تلك المعانى فى ذكرهم لها وإخبارهم عـــنها واستعمالهم إياها..... وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، كانت الإشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجع"[٥٢].

٢- وظيفة تعبيرية (نفسية):

فهـــى تعـــبر عـــن "حاجاتهم" وعن "مواضع سد الخلة، ورفع الشبهة ، ومـــداواة الحيرة" لأن الإنسان يحتاج دائماً إلى التعبير عما يختلج فى نفسه مـــن شعور وإحساس "فالحاجة إلى بيان اللسان حاجة دائمة أكيدة، وراهنة ثابتة "[٥٣].

٣- وظيفة تداولية:

تتضـــح الوظيفة التداولية للغة عند الجاحظ من خلال الإجابة عن السؤال الآتـــى: ما اللغة التى يدرسها الجاحظ ، هل يدرس اللغة المكتوبة والمدون بها النصـــوص الفصـــيحة شعراً ونثراً؟ أم يدرس لغة حية منطوقة يتداولها الناس فـــى شـــئون حـــياتهم المختلفة؟ ومن خلال معالجته لنظرية البيان وعناصرها يتضـــح لـــنا أنـــه يدرس اللغة الحية المتداولة بين متكلم ومخاطب فى مواقف متنوعة لأن "البيان اسم جامع لكل شىء كشف عن قناع المعنى وعتك الحجاب دون الضـــمير حتى يفضى السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائناً ما كان ذلك البيان ومن أى جنس كان الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التى يجرى إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام..."[٥٤].

فالغايـــة مـــن اســـتعمال اللغة كشف المعانى وتحقيق التفاهم بين قائل وســـامع فى مواقف حية، فاللغة الصحيحة هى التى يتحدثها الناس، لا اللغة

الـــتى يعتقد شخص آخر أنه يتحتم عليهم أن يتحدثوها، فشيوع الاستعمال له قدسية تتضاءل بجانبها قوانين النحويين. (٥٥).

ويضـــع الجاحظ يده على الهدف النفعى (التداولى) للغة من خلال تحديد قـــيمة المعـــنى الذى "ليس يشرف أن يكون من معانى الخاصة، وكذلك ليس يتضـــع بـــأن يكـــون مـــن معانى العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحـــراز المـــنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال ، وكذلك اللفـــظ العامى والخصاص. فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك، ولطـــف مداخلـــك واقـــتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامة معانى الخاصة، وتكســـوها الألفـــاظ الواســـطة الـــتى لا تلطف على الدهماء، ولا تجفو على الأكفاء، فأنت البليغ التام"(٥٦).

فهـــو يـــرجع قيمة اللغة إلى إحراز المنفعة وحصول المعنى وموافقتها للمقامـــات والأحـــوال المختلفة التى تستخدم فيها بمرونة وطواعية، وقدرة المتكلم على التصرف فيها بما يناسب حال المخاطبين من الخاصة والعامة.

وتعدد وظائف اللغة عند الجاحظ أمر يقره علم اللغة الحديث، الذى يركز علـــى الوظـــائف غـــير العقلـــية للغة بجانب وظيفتها العقلية، كما يلتقى مع يسبرسن Otto Jesbersen الذى يرى أنه من المستحيل أن نصل إلى فهم تام لطبيعة اللغة إذا حصرنا اهتمامنا في الوظيفة العقلية للغة بوصفها وسيلة لـــنقل الأفكـــار وتوصيلها إلى الغير، وهو قول غير سديد بل هو قول ينافى الحقـــيقة، وذلك لأن استعمال اللغة للتعبير عن الأفكار وتوصيلها ينطبق على رجـــال الفكـــر والفلســـفة وأمثالهم فى اللحظات التى يكونون فيها مشغولين بأعمالهم العلمية التي تحتاج إلى تفكير عميق. (٥٧).

فاللغـــة لهـــا اســـتعمالات متنوعة، لأنها وسيلة تعبير اجتماعى وعلمى وسياســـى واقتصادى، مما يحتم ضرورة دراسة خصائص هذه الاستعمالات المختلفة ومعرفة أبعاد التكيف اللغوى مع مختلف الأغراض والمواقف (٥٨).

ومصـــطلح البـــيان عند الجاحظ مصطلح جامع يجمع كل طرق الاتصال ووســـائل التبلـــيغ فـــى المجتمع، ولولا أن السياق الذى ورد فيه هذا النص وعـــبارات مـــثل: "كائناً ما كان" و "من أى جنس كان" لقلت إن الجاحظ كان يتمـــثل اللغة المنطوقة دون وسائل البيان الأخرى. ومعرفة ذلك فإن استعمال

كلمـــات مثل: السامع، والقائل، والفهم ، والإفهام قد تؤكد أن الكلام المنطوق أو اللفظ كما قال تأتى عنده فى المقام الأول من وسائل البيان الأخرى(٥٩).

ثالثاً: عوامل التأثير غير اللغوية فى بناء اللغة:

لقـد لمس الجاحظ بذكاء شديد ودقة علمية تأثير العوامل الخارجة عن اللغـة الـتى تؤثـر فى بناء اللغة وأولاها جانباً كبيراً من العناية والدراسة، مـثل: الـنظم الاجتماعـية السـائدة فى المجتمع وتركيبه الطبقى والعرقى، وطبـيعة الموضوع الذى يتناوله الكلام، وطريقة الكلام نفسها، إذا كانت فى مواقـف رسـمية أو غير رسمية مثل مواقف الود والصحبة، وتأثير المتكلم نفسـه الذى يختار لنفسه نمطاً خاصاً من سلوكيات الكلام لا يشترك معه فيه سـواه، ونسـتطيع أن نمـيزه بـه عن باقى أفراد اللغة الواحدة، وتأثر هذا الاختـيار بعمـر المتكلم ومهنته وثقافته، ووضعه الاجتماعي، وكذلك تأثير المخاطب، فهو يؤدى نفس الدور لأنه الطرف الثانى فى أى اتصال لغوى.

كمـا تـؤدى طبيعة العلاقة بينهما دوراً فى تحديد نمط الحوار كل ذلك علاوة على ما يمليه الموقف من توجيه نحو طريقة معينة للخطاب.

ومن مجموع هذه العناصر بنى علماء اللغة المحدثون صرح علم اللغة الاجتماعي وهو منهج فى دراسة اللغة يدعو إلى توسيع النظرة للغة ويتطلع إلـى دراسـتها من خلال الإطار العام والشامل الذى تنتمى إليه وتتولد عنه، فهى جزء من نسيج اجتماعي حى ومتداخل يؤثر بعضه فى بعض بما يجعل دراسـة أى مظهر من مظاهر هذا النسيج الاجتماعي المتكامل مفصولاً عن بقيتها أمراً لا يقبله العلم ولا تقر به الموضوعية.

ونعـرض فيما يلى لهذه العناصر كما أشار إليها الجاحظ حتى يظهر لنا إسـهاماته فـى دراسـة اللغة بما يتفق مع نظريات علم اللغة الحديث وهى كالآتى:

١-البناء الطبقى (Ethno) للمجتمع الإسلامى:

فـى كـلام الجاحظ عن العوام أشار إلى تأثير التركيب الطبقى والعرقى للمجـتمع فـى اللغة "وإذا سمعتمونى أذكر العوام فإنى لست أعنى الفلاحين والحشـوة والصـناع والباعة، ولست أعنى أيضاً الأكراد فى الجبال، وسكان

الجزائـــر فـــى البحار..... وإنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع : العـــرب، وفارس والهند ، والروم. والباقون همج وأشباه همج. وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا، ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التى عقولها وأخلاقها فـــوق تلك الأمم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا. على أن الخاصة تتفاضل فى طبقات أيضاً." (٦٠).

ويتضـــمن هـــذا الـــنص أكـــثر من تصنيف لأفراد المجتمع على أسس مختلفة:

١- على أساس المكانة الاجتماعية إلى: خاصة، وعامة.

٢- على أساس المهنة إلى: فلاحين وصناع و باعة،

٣- على أساس العرق إلى: عرب، وفرس، وهنود، وروم، وهمج.

وعلـــى الـــرغم أن أفراد المجتمع الواحد يتكلمون لغة واحدة تتألف من ألفـــاظ معيـــنة تحكمها قواعد معروفة، ولها قواميس تضم مفرداتها، وتحدد بدقـــة معـــانى هذه المفردات، فإن ثمة عوامل اجتماعية واقتصادية وسلالية كثـــيرة تـــؤدى إلـــى تفـــاوت أفـــراد المجتمع فى إدراكهم للغة وفى طرائق استخدامهم لها(٦١).

لذلك يرى كريستال (Grystal) أن الدراسات اللغوية الاجتماعية تمكننا مـــن التعرف الدقيق على ماهية المشكلات الناتجة عن ثنائية اللغة أو تعددها والـــناتجة عن حاجة الأفراد للتفاعل فيما بينهم بأساليب لغوية محددة، فاللغة يمكن أن تكون عاملاً للألفة أو النفوذ أو التماسك أو المكانة الاجتماعية، كما يـــرى أن الفرصـــة لإيجاد حلول لأى من تلك المشكلات ضعيفة ما لم تشيد علاقة مرتكزة على التفاعل بين اللغة و المجتمع(٦٢).

فمن تأثير الطبقة والمكانة ما أورده الجاحظ من ترجمة لصحيفة هندية فـــى الـــبلاغة "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة. وذلك ن يكون الخطيب رابط الجـــأش، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يُكلم سيد الأمَة بكلام الأمـــة، ولا الملـــوك بكـــلام السوقة، ويكون فى قواه فضل التصرف فى كل طـــبقة، ولا يدقـــق المعـــانى كـــل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصـــفيها كل التصفية ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يُصاب حكـــيماً، أو فيلســـوفاً علـــيماً، ومـــن قد تعود حذف فصول الكلام، وسقاط

مشتركات الألفاظ.....، ومدار الأمر على إفهام قوم بمقدار طاقتهم، والجمل عليهم على أقدار منازلهم ....."[٦٣].

والبليغ عند الجاحظ من يعرف للحضور مكانتهم ويُراعى ذلك فى حديثه فلا يحدث العامة بمعانى الخاصة، ولا الخاصة بمعانى العامة، وبعد أن يفرق الجاحظ بين العامَّى والخاصِّىّ يقول:

"فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك ، إلى أن تفهم العامة معانى الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف على الدهماء ، ولا تجفو على الأكفاء ، فأنت البليغ التام"[٦٤].

إن ثقافة أى أمة أو جماعة ترتبط ارتباطا وثيقاً بنمط لغتها مادامت الأخيرة تعكس مادة نشاطات هذه الطائفة ..... ومهما يكن من شىء فلاشك أن اللغة تشكل جزءاً من الوعى الثقافى، وأن التمييز بين جماعة وأخرى ليؤسس غالباً على الأقل من الناحية الظاهرية- على اللغة [٦٥].

"وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عامياً، وساقطاً سوقياً، فكذلك لا ينبغى أن يكون غريباً وحشياً، إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً؛ فإن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس، كما يفهم السوقى رطانة السوقى . وكلام الناس فى طبقات كما أن الناس أنفسهم فى طبقات. فمن الكلام الجزل والسخيف ، والمليح والحسن، والقبيح والسمج، والخفيف والثقيل، وكله عربى وبكل قد تكلموا، وبكل قد تماحوا وتعايبوا....."[٦٦].

وعبارة الجاحظ "وكلام الناس فى طبقات كما أن الناس أنفسهم فى طبقات" قول جامع وبرهان واضح على تأثير المكانة فى كلام المتكلم.

وهو يلتقى مع لابوف (W.Labov) الذى يرى أن إحساس الناس بالنسبة للتحول الاجتماعي له أثر كبير للغاية على الأشكال اللغوية التى يختارونها. فالناس الذين يطمحون للانتقال إلى طبقة اجتماعية أعلى من طبقتهم يتخذون لغة تلك الطبقة"[٦٧].

وفى دراسة مشهورة قام بها لابوف (١٩٧٢) رصد فيها فروق النطق بين البائعين فى ثلاثة محلات تجارية بمدينة نيويورك، وهى (ساكسن)

مستوى راق، و (ماكيز) مستوى متوسط، و (كلينز) مستوى متواضع وقد وجد بالفعل فروقاً قياسية بينها[٦٨].

"ولأن الشكل أفهم عن شكله، وأسكن إليه وأصب به ، وذلك موجود فى أجناس البهائم، وضروب السباع والصبى عن الصبى أفهم له، وله آلف وإليه أنزع، كذلك العالم والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام. (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً) [٦٩] أن الإنسان عن الإنسان أفهم ، وطباعه بطباعه آنس، وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه"[٧٠].

وقد وُجِدَ فى بعض المسح اللهجى أن بين الذين تركوا النظام التعليمى فى سن مبكرة ميل عظيم لاستعمال صيغ غير شائعة نسبياً فى كلام الذى واصلوا تعليمهم حتى الجامعة..... ومما يتصل بالتعليم الاختلافات الوظيفية والطبقة الاجتماعية التى لها بعض التأثير على كلام الأفراد، فلكل وظيفة قدر من لغية (Jargon) يصعب فهمها على غير أهلها.[٧١].

وقد نبه الجاحظ المتكلم الذى ينقل كلام الأعراب الفصحاء أو كلام العوام إلى الآتى:

"ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها. فإنك عن غيرتها بن تلحن فى إعرابها وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير.

وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطغاة فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب أو أن تتخير لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً فإن ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدت له ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها." [٧٢].

إن ثقافة الجاحظ الواسعة ومعرفته بالمجتمع من حوله ومعارفه الجمة مكنته من رصد التنوعات اللغوية التى لاحظها وربطها بالتنوعات الاجتماعية التى يتكون منها المجتمع الإسلامى.

فاللغة عند الجاحظ ليست كائناً ثابتاً أو جامداً، وإنما تخضع لحركية وديناميكية المجتمع الذى تحيا فيه، وتتعدد صورها وأشكالها بتعدد طبقات

المتكلمين وتعدد أنماط سلوكهم اللغوى "إن الإعراب يفسد نوادر المولدين، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب، لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة، وذلك المخرج وتلك اللغة، وتلك العادة"(٧٣).

وهذا ما يحدث فى أى مجتمع يتميز كلام كل طبقة فى الصورة اللغوية التى يخرج عليها، وفى طريقه نطق الألفاظ وفى النمط اللغوى الذى يسلكه، وفى عاداته الكلامية التى تميز بها كل فرد عن الآخر وهو ما أشار إليه دى سوسير بمصطلح (La parole) الكلام وهو الصور الفردية المتعددة للغة الواحدة.

وقد حاول الجاحظ ربط هذا التنوع والتعدد الحاصل فى اللغة الواحدة بتعدد حاجات الأفراد "كثر كلام الناس، واختلفت صور ألفاظهم ومخارج كلامهم ومقادير أصواتهم فى اللين والشدة، وفى المد والقطع ، وكثرة حاجاتهم ولكثرة حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصاريف ألفاظهم ، واتسعت على قدر اتساع معرفتهم"(٧٤).

وبناء على ذلك حاول الجاحظ إقامة شبكة من العلاقات بين العربية الفصحى أو لغة الأعراب كما كان يسميها أحياناً واللهجات الاجتماعية (Social dialects) واللهجات الإقليمية (Regional dailects) التى انبثقت من العربية، خاصة بعد الفتح الإسلامى وانتشار العربية بين أمم وشعوب لم تكن العربية لغتها الأم(٧٥).

وقد سجل الجاحظ التنوعات اللغوية ورصدها كما هى باعتبارها صورة صادقة لأصحابها، ولم يتدخل بالتعديل فى الأسلوب أو التصحيح فى اللغة ونقلها كما جاءت فى ألسنة أصحابها، لأنها تعكس تكوينهم الثقافى والنفسى والعلمى، وتعكس كذلك أوضاعهم الاقتصادية و الاجتماعية ونبه إلى ذلك بقوله: "وإن وجدتم فى هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب أو لفظاً معدولاً عن جهته، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك، لأن الإعراب يبغض ذلك الكتاب، ويخرجه عن حده ، إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعاقلى البخلاء وأشحاء العلماء"(٧٦).

وقد رصد الدكتور حلمى خليل نماذج لتراكيب تخالف العربية الفصحى من كتاب البخلاء، ويرى أن ما يلفت النظر فى هذا الكتاب ذلك الجو العامى

الشـــعبى الـــذى تعكســـه اللغة التى استخدمها الجاحظ ، والتى تعطى صورة نابضـــة بالحـــياة ، خاصة فيما يتصل بكلام العامة، وحتى يكاد المرء يشعر بالحـــياة اليومية لهذه الطبقة من الناس من خلال الألفاظ الدالة على طعامهم وشرابهم وملابسهم وسلوكهم الاجتماعي(٧٧).

ولـــتعدد حاجـــات الـــناس واختلاف طاقاتهم ومستوياتهم "لم يرض من البـــيان بصـــنف واحـــد، بل جمع ذلك ولم يفرق، وكثر ولم يُقلل وأظهر ولم يخـــف، وجعـــل آلة البيان التى بها يتعارفون معانيهم، والترجمان الذى إليه يرجعون عند اختلافهم فى أربعة أشياء وفى خصلة خامسة، ..."(٧٨).

لذلـــك فإن تحليل المعنى فى سياق الخطاب الاجتماعي يجب أن يُقبل لا مـــن خـــلال المنطق الشكلى أو البنيات المعرفية النموذجية، ولكن من خلال الانتـــباه لتأثير الثقافة والعناصر الاجتماعية فى استعمال اللغة وتفسيرها من خلال السياقات المختلفة التى ترد فيها. (٧٩).

ويركـــز فيتجنشـــتين (Wittgenstein) من خلال نظريته فى دراسة اللغة على اللغة العادية والمعانى المستعملة وطريقة اللغة والسياق والوظيفة وأنشـــطة الكـــلام واتصـــال اللغة بالحياة ودور العادات والأنشطة المختلفة وغموض المعنى وما إلى ذلك. (٨٠).

٢-تأثير العمر والمهنة والنوع والعرق على اللغة

إن التـــنوعات اللغويـــة الكثيرة لا تُعزى جميعها عند الجاحظ إلى تأثير الطبقة الاجتماعية (Social class) وإنما لها أسباب متنوعة أيضاً منها:

١- تنوعات لغوية على أساس المرحلة العمرية (طفل /شاب/شيخ).
٢- تـــنوعات لغويـــة علـــى أســـاس الحـــرفة أو المهـــنة (سماك/زارع/طبيب/خياط/.....)
٣- تنوعات لغوية على أساس النوع (رجل/امرأة).
٤- تـــنوعات لغوية على أساس العرق (مولد/ خراسانى/ نبطى/ رومى/ .....)

أولاً: تنوعات لغوية على أساس المرحلة العمرية للمتكلم:

إن اللغـــة تتطور مع سن الفرد، ولكل مرحلة صفات لغوية تميزها عن غـــيرها وهـــذا من الأعراف اللغوية المعروفة لدى أبناء اللغة، فإذا حدث أن

خـرق أحـد الأفـراد هـذه الأعراف، فإن ذلك الخرق يكون واضحاً للجميع وعرضـة للنقد أو التعليق، كأن يتكلم-على سبيل المثال- رجل فى الأربعين وكأنه شاب مراهق. (٨١).

وقـد أشار الجاحظ فى كتابيه "البيان والتبيين" و"الحيوان " إلى أن اللغة ابـنة قائلهـا وأنهـا تـتأثر به، فإذا كان صغيراً ناشئاً فى طور تعلم اللغة واكتسـابها مـن المحيطين به، ولم يكن له بها طول تمرس وتدريب انعكس ذلك جلياً فى لغته، لأن لسانه لم يستقم بها بعد وأن اكتسابها وإتقانها يحتاج إلـى تمريـن جهاز اللغة عنده فترة طويلة من الزمن حتى يلين له ويجرى لسـانه بها فيقول الجاحظ: "والذى يعترى اللسان مما يمنع من البيان أمور: منها اللثغة التى تعترى الصبيان إلى أن ينشئوا....."(٨٢).

بالـرغم أن الأطفال يسمعون اللغة سليمة وصحيحة على ألسنة ذويهم والمحيطيـن بهـم فـإن بعض العيوب التى تعترى كلامهم مصدرها أعضاء الـنطق الـتى لم تتكون لها الخبرة والمهارة اللازمة لأداء اللغة سليمة كما سُـمعت فتنشأ بعض العيوب فى نطق الأطفال مثل: اللثغة التى نلاحظها فى كلامهم ونعجب بها أحياناً.

وقـد كـان الجاحظ دقيقاً عندما فرّق بين هذه العيوب الناتجة عن قلة خـبرة جهاز النطق لدى الأطفال، وعيوب النطق عند كبار السن الناتجة عن الضـعف والتراخى الذى أصاب هذا الجهاز كما أصاب الجسم كله مما يترك أثره على مخارج الحروف بقوله:

"وهـذا خلاف ما يعترى الشيخ الهرم الماج، المسترخى الحنك، المرتفع اللـثة"(٨٣)، فالخـبرة اللغوية عملية متدرجة تبدأ متعثرة فى البداية، وتسير نحـو الاكـتمال تدريجيا ثم بفعل الزمن تضعف الآلة التى تنتجها لما يصيب الإنسان من هرم وضعف وهزال، فتبدأ عيوب النطق فى الظهور من جديد.

ولكـن التغـيرات المرتـبطة بعمر المتكلم ليست فقط فى الأصوات أو طريقة النطق بل تتجاوز ذلك إلى فروق واضحة فى اختيار الكلمات وطريقة التعبير عن الموضوعات المختلفة، فإذا نظرنا إلى اللغة التى يتكلمها الأجداد و اللغة التى يتكلمها الأحفاد داخل أسرة واحدة فى بيئة لغوية واحدة نستطيع أن نلمـس فـروقاً واضحة، فهناك مجموعة من الكلمات تجرى على لسان

الشباب تعبر عن المرحلة العمرية التى يعيشونها وعن اهتماماتهم، تكون محل استهجان الأجداد وموضع انتقادات لاذعة منهم.

ثانياً: تنوعات لغوية على أساس حرفة المتكلم

شرح الجاحظ فى رسالته فى صناعة القواد أثر الحرفة على لغة صاحبها بقوله فجعلت كل صاحب حرفة يتكلم بمفردات من مهنته حتى فى غير الحديث عنها وقد اختار الجاحظ لهذه الرسالة موضوعاً واحداً وهو وصف معركة دارت فى بلاد الروم فى عهد المعتصم وهذه الرسالة فى سياق نصيحة الجاحظ لأمير المؤمنين بأن يعلم أولاده من كل أدب "فإنك إن أفردتهم بشىء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه، وذلك أنى لقيت (حزاماً) حين قدم من بلاد الروم ، فسألته عن الحرب، كيف كانت؟ فقال لقيناهم فى مقدار صحن الأصطبل، فما كان إلا بمقدار ما يحس الرجل دابته حتى تركناهم فى أضيق (ممرغة) فقتلناهم وجعلناهم كأنهم أنابير سرجين فلو طرحت روثه ما سقطت إلا على ذنب دابة.

وعمل أبياتاً فى الغزل فكانت:

إن يهدم الصبر فى جسمى معالفه ... فإن قلبى يقت الوجد معمور

إنى امرؤ فى وثاق الحب يكبحه ... لجام هجر على الأسقام معذور

لبست برقع هجر بعد ذلك فى ... اصطبل حب فروث الحب منثور

وسألت بختيشوع الطبيب عن مثل ذلك فقال: لقيناهم فى مقدار صحن البيمارستان..... حتى تركناهم فى أضيق من محقنة فقتلناهم، فلو طرحت ميضعاً ما سقط إلا على أكحل رجل ... وسألت جعفر الخياط عن مثل ذلك فقال: لقيناهم فى مقدار سوق الخلقان، فما كان إلا بمقدار ما يخيط الرجل درزاً أو درزين حتى تركناهم فى أضيق من جُرُبان فقتلناهم، فلو طرحت إبرة ما سقطت إلا على رأس رجل .....وسألت إبراهيم ابن اسحق عن مثل ذلك وكان زرّاعاً فقال: لقيناهم فى مقدار جريبين من الأرض، فما كان إلا بمقدار ما يسقى الرجل من ساقيته حتى تركناهم فى أضيق من باب وكأنهم أنابير سنبل فقتلناهم، فلو طرحت فدان ما سقط إلا على ظهر ثور،

..... وسألت خبازاً فقال: لقيناهم فى مقدار بيت التنور، فما كان إلا بمقدار ما يخبز الرجل خمسة أرغفة حتى تركناهم فى أضيق من حجر التنور فقتلناهم، فلو سقطت جمرة ما وقعت إلا على جفنة خباز....."(٨٤).

وهكذا إلى آخر الرسالة نجد أن المؤدب ضمن كلامه ما يدل على مهنته مثل الدواة والكتابة والقراءة. وصاحب الحمام استعمل كلمات مثل: غسل - الأنون- ليفة.....

ويعقب الجاحظ على هذه الرسالة بقوله: "أدخلت الحرفة الضيم على لغتهم" والقارئ لهذه الرسالة لا يخالجه شك فى أن الجاحظ هو الذى صاغها ونظم أشعارها ليبين اختلاف المتكلمين وتأثرهم بلغتهم الخاصة ومفردات معجمهم المهنى(٨٥).

والذى يؤيد هذا الرأى عندى السياق الذى جاءت فيه هذه الرسالة وعنوانها، فهى فى صناعة القواد ، وما يجب أن يتعلموه ، هو فى مقام الناصح لأمير المؤمنين فصنع هذه الرسالة مدللاً بها على صحة ما ذهب إليه فى أن يعلم الخليفة أولاده من كل فن وأدب لأنهم إن تخصصوا فى شىء واحد لم يحسنوا غيره.

وقد ذكر الجاحظ كذلك لغة شعر المتسولين ، ولغة الجوارى والكواعب ولغة السماكين، ولغة اللصوص (٨٦).

فاللغة عنصر مهم جداً لتميز شريحة اجتماعية ومهنية عن أخرى ، فمن الممكن تميز لغة المدرسين عن لغة الأطباء وعن المهندسين والقضاة والطلاب والتجار والنجارين والمحامين، وهذا التمايز والاختلاف يحدث تواؤماً بين حرفة المتكلم والمفردات اللغوية التى تستدعيها ذاكرته فى المواقف المختلفة:

وهكذا تكشف لنا نصوص الجاحظ السابقة وعيه المبكر باجتماعية اللغة بما يؤكد أن للعرب جهوداً فى هذا المجال وهى تنتظر من يلفت إليها ويجمع بعضها إلى بعض ويبرزها فى الموقع المناسب لها على خريطة الدراسات اللغوية.

ثالثا: تنوعات لغوية على أساس النوع

التنوعات اللغوية المتصلة بجنس المتكلم (Sex) تمثل بؤرة اهتمام كثير من الأبحاث الحديثة، ومن النتائج العامة التى انتهى إليها المسح اللهجى أن الناطقين من الإناث أميل من الذكور إلى استعمال صيغ الوجاهة (Prestigious) مع تساويهما فى البعد الاجتماعي العام..... وفى بعض الثقافات توجد فروق أكثر تحديداً بين الذكور والإناث ، فقد ثبتت اختلافات بينة فى النطق بين الذكور والإناث فى بعض اللغات الهندية والأمريكية الشمالية(٨٧).

وقد أشار الجاحظ إلى طبيعة لغة الجوارى والكواعب والشَّواب بأن "اللحن من الجوارى الظراف، ومن الكواعب النواهد، ومن الشواب الملاح، ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر، وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف، ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد . وكما يستملحون اللثغاء إذا كانت حديثة السن، ومقدودة مجدولة، فإذا أسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح. (٨٨).

وقد أشار أحد الباحثين إلى اختلاف لهجة الرجال عن لهجة النساء عند بعض الشعوب التى يقل فيها اختلاط الرجال بالنساء أو يكون فيها كلا الجنسين بمعزل عن الآخر تحت تأثير نظم دينية أو تقاليد اجتماعية بما يجعل لهجة الرجال تختلف عن لهجة النساء اختلافاً يسيراً أو كبيراً(٨٩).

فاللغة التى يتكلمها الرجال والنساء واحدة لكنها تحفل بتنوعات لغوية كثيرة يميل الرجال إلى استعمال بعض منها على حين تميل النساء إلى استعمال نمط آخر من التعبيرات التى لو استعملها الرجال ربما تعرضوا للنقد والسخرية.

وقد حفل موضوع علاقة المرأة باللغة فى العصر الحديث بالعديد من البحوث والدراسات، بعضها أبحاث موضوعية تعمل على رصد الاختلافات بين الجنسين فى استعمال اللغة، وبعضها الآخر جانب الصواب عندما حَوَّل القضية إلى صراع وتجاذب ومفاضلة بين جنس وآخر(*).

ويقول أيضاً: "هنا تأتى المرأة إلى اللغة بعد أن سيطر الرجل على كل الإمكانات اللغوية وقرر ما هو حقيقى وما هو مجازى فى الخطاب التعبيرى،

ولـم تكـن المـرأة فى هذا التكوين سوى مجاز رمزى أو خيال ذهنى يكتبه الرجل وينسجه حسب دوافعه البيانية والحياتية"

وقـد أورد الدكـتور حسام الخطيب بحثاً مترجماً لاوتويسبرسن بعنوان "اللغـة والمرأة" أذكره هنا نموذجاً للبحث فى هذه القضية بطريقة موضوعية حيـث انـتهى يسبرسـن فيه إلى أنه فى المجتمعات التى تتمتع بعزلة بين الـرجال والنساء، هناك تعابير كثيرة خاصة بالرجل تفهمها المرأة لكنها لا تسـتعملها وفـى المقابل هناك كلمات وعبارات خاصة بالنساء ولا يستعملها الرجال(٩٠).

فاللغـة سمة إنسانية ابتكرها الإنسان رجل وامرأة، لم ينفرد بها أحدهم دون الآخـر، أمـا ما يمكن أن يثبته البحث العلمى فهو فروق فى استعمال اللغـة بيـن الجنسين، كل حسب الطبيعة التى جبل عليها لأن اللغة كما تتأثر بعمر المتكلم ومكانته فى المجتمع وبالحرفة التى يحترفها تتأثر أيضاً بنوعه.

وهذا ما نلاحظه من خلال ممارستنا اليومية للغة، فإن المرأة بحكم قوة عاطفـتها تتجنـب اسـتعمال الكلمـات الجافة والعبارات الفظة، وتعدل إلى اسـتعمال صـيغ غير مباشرة للتعبير عن بعض الموضوعات، مما جعل لها نمطاً خاصاً فى التعبير عن نفسها.

فالمـرأة شـريك فى استعمال اللغة، وعلاوة على ذلك هى المعلم الأول لهـا، فهى التى تلقنها للطفل فى السنوات الأولى من عمره وتشكل محصوله اللغوى الأول، ومن هذه المشاركة ينتج التنوع اللغوى الذى يثرى الدراسات والبحوث فى اللغة.

رابعاً: تنوعات لغوية على أساس العرق

يـربط الجاحظ بين البنية اللغوية- خصوصاً من الناحية الصوتية - والبنية العرقـية للمجـتمع الإسلامى. فتراه يفرق بين لغة الأعراب الفصحاء ولغة المولدين والخراسايين والنبطيين و ... فيقول:

"وقد يتكلم المغلاق الذى نشأ فى سواد الكوفة بالعربية المعروفة ويكون لفظـه متخـيراً فاخـراً ومعناه شريفاً كريماً، ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطى، وكذلك إذا تكلم الخراسانى على هذه الصفة فإنك

تعلم مع إعرابه وتخير ألفاظه فى مخرج كلامه أنه خراسانى، وكذلك إذا كان من كتابِ الأهواز"(٩١).

إن مـــا يشير إليه الجاحظ ببساطة فى هذا النص هو ما يُعد اليوم فرعاً مـــن أحـــدث فـــروع علم اللغة وهو علم اللغة السلالى أو العرقى Ethno-Linguistics) .

مـــا انـــتهى إلـــيه علـــم اللغة الحديث أن كلام المهاجرين الجدد وكذلك أطفـــالهم ســـيحمل غالـــباً ملامح تميزه ..... فمثلاً كلام الأمريكيين السود ويطلـــق علـــيه إنجليزية السود (black English) لهجة اجتماعية واسعة الانتشار(٩٢).

هو ما أشار إليه الجاحظ بأن "النخاس يمتحن لسان الجارية إذا ظن أنها رومـــية وأهلها يزعمون أنها مولدة بأن تقول "تاعمة" وتقول "شمس" ثلاث مرات متواليات"(٩٣).

٣-مستويات الأداء اللغوى عند الجاحظ

ربـــط الجـــاحظ اللغة بمستعملها، ومن خلال العلاقة بين اللغة والمتكلم تعرض لدراسة المستويات اللغوية على النحو الآتى:

أولاً: لغة الأعراب الفصحاء:

"لم أجد فى خطب السلف الطيب والأعراب الأقحاح، ألفاظاً مسخوطة ولا معـــانى مدخولـــة ولا طـــبعاً رديئاً ولا قولاً مستكرهاً. وأكثر ما نجد ذلك فى خطـــب المولدين وفى خطب البلديين المتكلفين، ومن أهل الصنعة المتأدبين، ســـواء كـــان ذلك منهم على وجه الارتجال والاقتضاب أو من نتاج التحبير والتفكير"(٩٤).

فكـــلام العـــرب الخلص أصحاب اللسان العربى (Native speaker) يمثلون عند الجاحظ قمة الأداء اللغوى الفصيح.

"وأنـــا أقـــول إنـــه لـــيس فى الأرض كلام هو أمتع ولا أنق ولا ألذ فى الأســـماع ولا أشـــد اتصالاً بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء"(٩٥).

ثانياً: لغة العوام:

والعوام طبقة اجتماعية أدنى من الطبقة الخاصة وأصحاب المكانة الرفيعة وهم غير الفلاحين والحشوة والصناع والباعة وهم فوق الأمم الأخرى مثل: الأكراد والفرس وغيرهم . حيث جعلهم الجاحظ دون الخاصة من العرب وفوق العجم وعرفها بقوله:

"الطبقة التى عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا"(٩٦).

ثالثاً: لغة المولدين

اللغة عند الجاحظ لا تثبت على حال واحدة ، وإنما هى خاضعة لظروف متكلميها بما تمليه حاجاتهم وظروفهم، فهو يقر بمبدأ التغير اللغوى (Languaje-change) فقد " كثر كلام الناس، واختلفت صور ألفاظهم ومخارج كلامهم ومقادير أصواتهم فى اللين والشدة، وفى المد والقطع، كثرة حاجاتهم، ولكثرة حاجاتهم كثرة خواطرهم وتصاريف ألفاظهم ، واتسعت على قدر اتساع معرفتهم "(٩٧).

وقد كان للمولدين من المسلمين لغة تميزهم فيقول: "إن الإعراب يفسد نوادر المولدين، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب، لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة، وذلك المخرج، وتلك اللغة، وتلك العادة"(٩٨) ولغة المولدين تختلف عن لغة الأعراب وعن لغة الأعاجم.

رابعاً: لغة غير العرب

وهى طبقة الأمم الأخرى التى دخلت الإسلام من غير العرب مثل: الروم والنبط والخراسانيين والسند والفرس وغيرهم الذين لم يتقنوا العربية لتأثر لسانهم باللغة التى نشأوا عليها فجاء أداؤهم للعربية تشوبه بعض العيوب بسبب ظهور خصائص لغاتهم الأصلية فى اللغة الجديدة فكانوا يؤدون العربية بلكنة خاصة (Accent) ، وقد فرق الجاحظ بين اللكنة واللثغة واللحن وبعض عيوب النطق:

"يُقال فى لسانه لكنة إذا أدخل بعض حروف العجم فى حروف العرب، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول"(٩٩).

اللغـــة، وأثـــر الاحتكاك باللغات الأخرى، وكثير من دراساتهم تدل على أنهم تنبهوا إلى العلاقة الوثيقة بين اللغة والحياة الاجتماعية بشكل عام(١٠٤).

ولـــم ينصف أحد الباحثين الذى أنكر على سلفنا جهودهم فى مجال علم اللغة الاجتماعي عندما قال:

"إن علماء الاجتماع قد أخذوا على القدامى من علماء اللغة بهذا الصدد مـــآخذ كثـــيرة، تـــرجع إلى تقصيرهم فى بيان العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهـــر الاجتماعية وانحرافهم أحياناً عن جادة الصواب فى هذا السبيل، وتفســـيرهم لـــبعض الظواهـــر اللغوية تفسيراً خاطئاً يبعد بها عن المجتمع وشئونه(١٠٥).

٤- نظرية سياق الحال عند الجاحظ

نتناول نظرية سياق الحال عند الجاحظ من خلال المحاور الآتية:

١- العلاقة بين المتكلم والمخاطب.

٢- الموقف.

٣- الموضوع الذى يدور حوله الكلام.

أولاً: العلاقة بين المتكلم والمخاطب

واحدة من أهم قدرات علم اللغة الاجتماعي التفاعلى (interactional Sociolinguistics) فـــى أحـــدث نظريات علم اللغة الاجتماعي- إصراره علـــى وجود سيمترية (asymmetries) أو تناسق فى الخلفيات الاتصالية للمتكلميـــن ممـــا يجعلهم (المتكلمين والمستمعين) لا يتشاركون فى إجراءات الاستدلال وفهم السياق بنفس الطريقة(١٠٦).

وهذا ما قاله الجاحظ من خلال كلام بشر بن المعتمر حينما مر بإبراهيم بـــن جـــبلة يعلم فتيانهم الخطابة قال: "ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ويـــوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة مـــن ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مكاناً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعـــانى ويقســـم أقدار المعانى على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"(١٠٧).

نـــوع الاســـتجابة لـــدى المستمع والتى يلحظها المتكلم يمكن أن تغير طريقـــته فـــى الكـــلام، فمـــثلاً لو أن المستمع غير مهتم أو غير فاهم يمكن

للمتكلم أن يتكلم ببطء أو يعيد الكلام مرة أخرى أو يزيد من الشرح والتوضيح(١٠٨).

فهناك علاقة تفاعلية بين المتكلم والمخاطب هى التى تحدث دينامية الحدث اللغوى، لأن الكلام الذى هو مادة التحليل اللغوى لم يقع من تلقاء نفسه، وإنما له فاعل أحدثه أو أنتجه، كما أنه لم يقع منه عشوائياً أو فى فراغ مطلق، وإنما هو موجه إلى سامع يحمل إليه رسالة أو معنى فى علاقة حوارية بينهما، كما أن بينهما تبادل فى الأدوار، المتكلم الآن مستمع فى موقف آخر والعكس صحيح، وهذه الازدواجية فى الأدوار (المتكلم/ السامع) أقوى أدلة التفاعل. وهذا ما يراه الجاحظ الذى يوجب على المتكلم "إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على مقدار منازلهم"(١٠٩).

فعندما يقصد المتكلم إلى معنى من المعانى يذهب السامع منه إلى معانى أهله وإلى قصد صاحبه، كقول الله تبارك وتعالى ﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾(١١٠). وقوله: ﴿لا يموت فيها ولا يحيى﴾(١١١). وقوله: ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾(١١٢).

الخبرة اللغوية والخلفية المشتركة لدى المتكلم والسامع تسمح للمتكلم بالتحليق وراء الأساليب المتنوعة والتعبيرات البلاغية اعتماداً على قدرة السامع على تحصيل معانيها، وحديث الجاحظ عن الإشارة وعن إرسالها واستقبالها توجيه نحو التفاعل بين الطرفين الحادث بفعل النظرات المتبادلة بين المتشاركين فى الخطاب فيقول: "وفى الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة فى أمور يسترها بعض الناس من بعض ويخفونها من الجليس وغير الجليس، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص..."(١١٣). وذكر عدداً من أبيات الشعر يؤكد بها كلامه منها:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها ... إشارة مذعور ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحباً ... وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيم

وقول الآخر فى نفس المعنى:

ترى عينها عينى فتعرف وحيها ... وتعرف عينى ما به الوحى يرجع

وقول آخر:

وفى العين غنى للمر ء أن تنطق أفواه
العين تبدى الذى فى نفس صاحبها من المحبة أو بغض إذا كانا
والعين منطق والأفواه صامتة حتى ترى من ضمير الخلق تبيانا(١١٤)

وكذلك قول الشاعر:

متى تك فى عدوٍّ أو صديق تخبرك العيونُ عن القلوب(١١٥)

وقد اخترت أن أذكر هذه الأشعار التى أوردها الجاحظ لتأكيد ما ذهب إليه الدكتور نهاد الموسى فى أن "سبعين فى المائة من درجة تأثير الكلام فى مواقف الخطاب مرجعها إلى ما يكون من النظرات المتبادلة عند الحديث وأن قيمة الدلالة التعبيرية وتأثيرها يتدنيان إلى ثلاثين فى المائة فحسب إذا اقتصر على مجرد الكلام المنطوق وإذا كان ذلك كذلك فى نتائج الدراسات المتعارفة عند الغربيين على هذا المستوى، فإنه كان كذلك فى حصيلة التقديرات التى انتهت للباحثين العرب الأقدمين(١١٦).

وهذه المصاحبات اللغوية تمثل جانبا مهما من جوانب التواصل بين الناس، وهى أيضاً قسيم جيد للغة لا يجوز إغفاله، بل إنها تعد عند بعض الجماعات والأفراد، وفى ظروف وأحوال معينة الوسيلة الوحيدة للتواصل(١١٧).

ويروى الجاحظ قول بعض العرب فى الحرص على وجود تفاعل ومشاركة وحماس من الملتقى لكلام المتكلم فيقول: "لا تطعم طعامك من لا يشتهيه. يقول لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه. وقال عبد الله بن مسعود حدث الناس ما حدجوك بأسماعهم ولحظوك بأبصارهم فإذا رأيت منهم فترة فأمسك"(١١٨).

فالتفاعل المطلوب لنجاح أى محادثة لابد أن يكون تفاعلاً مزدوجاً (duable-interaction) يُسمع المتكلم بحماس ولا يكون المتلقى سلبياً خاملاً وفى الوقت نفسه يبذل المتكلم جهداً ما فى الاحتفاظ بنشاط السامع وحماسه لإتمام المحادثة لذلك "قال أبو الحسن: قيل لإياس: ما فيك عيب إلا

كثرة الكلام. قال: فتسمعون صواباً أم خطأ؟ قالوا: لا، بل صواباً. قال: "فالزيادة من الخير خير" وليس كما قال، للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل على قدر الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال، فذلك الفاضل هو الهزار، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذى سمعت الحكماء يعيبونه"(١١٩).

ومن النشاطات المنوطة بالمتكلم بالإضافة إلى الكلام مراقبة حال السامع والتماس نشاطه وحماسه "قال وجد ابن السماك يتكلم وجارية له تسمع كلامه فلما انصرف إليها قال وكيف سمعت كلامى قالت: ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده. قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه. قالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه قد ملّه من فهمه... وقال بعض الحكماء من لم ينشط لحديثك فارفع عنه مؤنه الاستماع منك. وجملة القول فى الترداد أنه ليس فيه حد ينتهى إليه ولا يؤتى إلى وصفه وإنما ذلك على قدر المستمعين له ومن يحضره من العوام والخواص."(١٢٠).

فالمتكلم ينظر لحال سامعيه لأنهم ليسوا جميعاً فى مرتبة واحدة فبعضهم يكفيه الوحى والتلميح وبعضهم يعوزه التصريح وبعضهم يحتاج إلى مزيد من الشرح والتوضيح، فالأول فى غنى عما يحتاجه الثانى والثانى فى غنى عن حاجة الثالث.

وقد ألمح الجاحظ إلى مراعاة القرآن الكريم لحال المخاطب عندما فرق فى أسلوب الخطاب بين العرب والأعراب وبين بنى إسرائيل فيقول: ورأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى والحذف وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوطاً، وزاد فى الكلام. فأصوب العمل اتباع آثار العلماء والاحتذاء على مثال القدماء والأخذ بما عليه الجماعة"(١٢١). ومما يدل على مراعاة حال المخاطب: "لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة"(١٢٢).

إن المتشاركين فى اللغة مختلفين فى الخلفيات المعرفية والأهداف والاحتياجات والأعمار والانتماءات السياسية والتوجهات الثقافية والظروف الاجتماعية والاقتصادية، كما أن اهتمامهم وحماسهم لموضوع المحادثة ليس بنفس القدر.

وهـم لا يتفاعلون باعتبارهم متكلمين أو كتاب ومستمعين أو قراء فقط ولكنهم يتفاعلون باعتبارهم أعضاء فى فئة الاجتماعية أو مجموعات ومهن ومنظمات وثقافات متنوعة كما يتفاعلون رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً سوداً وبـيض، فقراء وأغنياء، ومعلمين وطلاب، ... وهم يتفاعلون جميعاً باللغة فى مجموعات مؤتلفة لأداء أدوار اجتماعية وثقافية بنشاط ونظام(١٢٣).

٢- الموقف (الحال) Context

سـبقت الإشارة إلى تقسيم الجاحظ إلى أصناف البيان على أربعة أقسام وهـى: لفظ، وخط، وعقد، وإشارة. ثم أضاف إليها ما أسماه "النصبة" وهو عـنده "بيان الدليل" بقوله: "وجعل بيان الدليل الذى لا يستدل تمكينه المستدل مـن نفسـه، واقتـياده كل من فكر فيه إلى معرفة ما استخزن من البرهان، وحشـى من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمة، فالأجسام الخرس الصامتة، ناطقة من جهة الدلالة، ومعربة من جهة صحة الشهادة، على أن الذى فيها مـن التدبـير والحكمة، مخبر لمن استخبره، وناطق لمن استنطقه، كما خبر الهـزال وكسوف اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السمن وحسن النضرة عن حسن الحال، وقد قال الشاعر فى مدح سليمان بن عبد الملك وكرمه:

فعـاجوا فأثـنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب(١٢٤)

فالحـال الـتى عادوا عليها من عند الخليفة ناطقة بغير لسان وشاهدة على ما كان من الممدوح من كرم وسخاء.

ويضـيف الجـاحظ أن الجمادات والسماء والأرض والأنهار والأشجار تشارك الإنسان الناطق فى الدلالة والاعتبار بغير لسان لأن حالها شاهدة.

"وقـال الفضـل بن عيسى بن أبان فى قصصه: سل الأرض، فقل: من شـق أنهـارك وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتـباراً. فموضوع الجسم ونصبته، دليل على ما فيه وداعية إليه، ومنبهة علـيه، فالجمـاد الأبكم الأخرس من هذا الوجه، قد شارك فى البيان الإنسان الحى الناطق..."(١٢٥).

والسياق المقصود عند الجاحظ هنا هو السياق الأكبر أو سياق المقام الذى يشمل البيئة الجغرافية والاجتماعية والثقافية ومجموع الظروف المحيطة بالمتكلمين وهو ما يعرف فى علم اللغة الحديث "بالسياق الحالى الخارجى القائم على المعوقات التى يستقيها كل من الكتاب والقراء من العالم الخارجى المحيط. ومدلول النص لا يعرف إلا من خلال الجو المحيط به.(١٢٦).

وقد ذكر الجاحظ قول على بن الحسين بن على -رضى الله عنهم- "لو كان الناس يعرفون جملة الحال فى فضل الاستبانة وجملة الحال فى صواب التبيين للأعربوا عن كل ما تخلج فى صدورهم ولوجدوا من برد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم..."(١٢٧).

ويؤكد الجاحظ حرصه على أهمية الموقف للمتكلم: "إذا أعطيت لكل مقام حقه وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو"(١٢٨).

ولم ينس الجاحظ أن الموضوع الذى يدور حوله الكلام له تأثير فى الخطاب لأن "لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعان نوع من الأسماء فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح فى موضع الإفصاح." (١٢٩).

وللجاحظ نص جامع ضمنه كل عناصر التأثير فى اللغة سواء كانت من داخل اللغة أو من خارجها:

"ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى، ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات، فإن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين، كما أنه إن عبر عن شىء من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين (إذا تكلم فى علم الكلام) إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل وإليها أحن وبها أشغف، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك

المعـــانى وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم، فصاروا فى ذلك سلفا لكل خلف..."(١٣٠).

وعناصر السياق كما جاءت فى النص السابق هى:

- المتكلم وما يجب عليه.
- المستمع ومكانته.
- المعانى أو الموضوعات المراد الحديث عنها.
- المقامات التى يدور فيها الحديث.
- الهدف من الحديث.

فقـــد وضـــع الجـــاحظ يده على مجموع العناصر المكونة للسياق وهى تتشـــابه إلـــى حـــد كبـــير مع عناصر السياق عند فيرث (Firth) وهايمز (Hymes) الذى حدد عناصر السياق فيما يلى:

١- شكل الرسالة ومحتواها.
٢- محيط الحدث الكلامى.
٣- المشاركين.
٤- قصد الاتصال (الهدف).
٥- الأسلوب.
٦- الوسط.
٧- قواعد التفاعل(١٣١).

وهى عناصر تتفق مع ما سبق أن حدده فيرث.

رابعاً: صعوبات تعلم اللغة عند الجاحظ

بعد أن أوضحنا عناصر التأثير فى اللغة عند الجاحظ يمكن أن نقول أنه استطاع أن يحدد بدقة الصعوبات التى تواجه المتكلم عند تعلم لغة غير لغته الأصـــلية. هـــذه الصـــعوبات عند الجاحظ بعضها يعود إلى اللغة الجديدة أو المكتسبة (The target language) اللغة الهدف ومنها أمور خارجة عن اللغة ومنها أمور مرجعها اللغة الأصلية ويمكن صياغة هذه الصعوبات فيما يلى:-

١- أسباب مرجعها اللغة الهدف: "على قدر مخارجها وخفتها وسلسها وتعقدها في نفسها"(١٣٢).

٢- أسباب تعود إلى المتكلم: بسبب جهل المتكلم بأماكنها التى وضعت فيها "واللغات إنما تشتد وتعسر على المتكلم بها على قدر جهله بأماكنها التى وضعت فيها..."(١٣٣)، أو بسبب عمره ونشأته لأن السندى "إذا جلب كبيراً فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زاياً ولو أقام فى عليا تميم وفى سفلى قيس، وبين عجز هوازن خمسين عاماً، وكذلك النبطى القح... يجعل الزاى سيناً، فإذا أراد أن يقول: زروق قال: سورق، ويجعل العين همزة، فإذا أراد أن يقول مشمعل قال: مشئمل"(١٣٤).

وبسبب مقدار حاجته لتعلم اللغة "فمن أعون الأسباب على تعلم اللفظ فرط الحاجة إلى ذلك..." و "على قدر الضرورة إليها فى المعاملة يكون البلوغ فيها، والتقصير عنها، ولولا حاجة الناس إلى المعانى، وإلى التعاون لما احتاجوا إلى الأسماء"(١٣٥).

٣- أسباب ترجع إلى اللغة الأصل أو اللغة الأم (mother language) التى تتدخل بتلقائية وتفرض قوانينها على اللغة الهدف وقد عبر الجاحظ عن ذلك بقوله:"واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها"(١٣٦).

ولم يكتف الجاحظ بذكر الصعوبات التى تجابه متعلم اللغات، بل ذكر كيفية التخلص منها عن طريق طول الممارسة وتكوين الخبرة الطويلة باللغة المراد تعلمها واكتسابها

فاللغة كما يرى الجاحظ تمرس وتمرين حتى تخضع لها جوارح الإنسان "فبطول استعمال التكلف ذلت جوارحه لذلك، ومتى تزل شمائله على حالها، ولسانه على سجيته، كان مقصوراً بعادة المنشأة على الشكل الذى لم يزل فيه"(١٣٧).

وقد أشار الجاحظ إلى أن الحكم ينطبق على مخارج الألفاظ، وفرق بينها وبين حروف الكلام وحكمها أنها إذا تمكنت من اللسان بطول الممارسة وتقدم السن فإنها لا تتغير أبداً " فأما حروف الكلام فإن حكمها إذا تمكنت فى

الألسنة خلاف هذا الحكم، ألا ترى أن السندى إذا جُلب كبيراً فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا ولو أقام فى عُليا تميم، وفى سُفلى قيس، وبين عجز هوازن خمسين عاماً. وكذلك النبطى القح يجعل الزاى سيناً ، فإذا أراد أن يقول زورق قال سورق، ويجعل العين همزة، فإذا أراد أن يقول مُشمعل، قال مشمئل(١٣٨).

فهذا من العادات اللغوية التى تتربى فى اللسان بفعل النشأة وطول الممارسة بما لا يدع للإنسان فرصة للتغيير. لذلك أمكن للعرب معرفة المولد الذى نشأ فى بيئة عربية من غيره فكان "النخاس يمتحن لسان الجارية إذا ظن أنها رومية وأهلها بزعمون أنها مولدة بأن تقول ناعمة ، وتقول شمس ثلاث مرات متواليات"(١٣٩).

فالخبرة اللغوية تحسن مخارج الحروف عنده بقدر لا يستطيعه حديث عهد بالعربية وكل ما أشار إليه الجاحظ من تغيرات وصعوبات فى النطق هى تغيرات صوتية مثل اللثغة وجعل الجيم زايا، والعين همزة والقاف كاف إلى غير ذلك وكلها عيوب مرتبطة بعادة اللسان وتمرس جهاز النطق على حروف لغة المتكلم الأصلية أو التى نشأ عليها، فصهيب بن سنان الرومى صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- برغم أنه من أصل عربى كان يقول: إنك لهائن، يريد إنك لحائن ، فهو ينطق العربية بلكنة الروم لأنه نشأ فيهم منذ صغره وتعلم لغتهم.(١٤٠).

خامساً: الخلاصة والنتائج

تناولت فى هذا البحث الفكر اللغوى الاجتماعي للجاحظ، الذى تشكل وفقاً للنظم الاجتماعية التى كانت سائدة فى المجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت، من خلال معرفته الموسوعية بالمجتمع الذى يعيش فيه، وبالرغم أن مؤلفات الجاحظ التى قامت عليها الدراسة وهى: "البيان والتبيين" و "الحيوان" و"الرسائل" ليست كتباً فى دراسة اللغة، ولكنه من خلال هذه الكتب تعرض لدراسة البيان عما فى النفس باللغة وبغير اللغة مثل: الإشارة والحال.

وبالـــرغم أن الدكـــتور حلمى خليل قد سبقنى إلى بحث دور الجاحظ فى مجـــال علـــم اللغة الاجتماعي من خلال بحثه الرائد "إرهاصات فى علم اللغة الاجتماعـــي عند الجاحظ" الذى أشرت إليه ضمن مراجع البحث وقد أهداه لى مشـــكوراً، فـــأفدت منه كثيراً، وقد نصحنى بمواصلة البحث حول هذا الدور المبكر للجاحظ فى هذا المجال، لأنه لازال بحاجة إلى مزيد من إلقاء الضوء، فكـــان هـــذا البحث الذى تناولت فيه أفكاراً أساسية تصور فكر الجاحظ، وقد عرضتها فى أربعة مباحث:

الأول: عن أنواع الاتصال: والاتصال عنده نوعان: لفظى وغير لفظى.

الـــثانى: عـــن حد اللغة ووظيفتها والفرق بين لغة الإنسان والأصوات التى تصدرها بعض الحيوانات.

الثالـــث: عـــن عوامـــل التأثـــير غـــير اللغوية، حيث لفت إلى دور التركيب الاجتماعي والعرقى والطبقى للمجتمع فى اللغة.

ولفـــت أيضـــاً إلـــى مستويات الأداء اللغوى وعلاقتها بالمستويات الطبقية والعرقية والنظم الاجتماعية السائدة فى المجتمع الإسلامى.

وكذلك "الحال" وقد ركز على النقاط الآتية:

- تأثـــير العلاقـــة بين المتكلم والسامع وكلامه فيها يؤكد حرصه على حيوية الاتصال.
- تأثير الموقف من خلال ما يجب من إعطاء كل مقام حقه.
- تأثـــير الموضـــوع أو المعـــنى الـــذى يدور حوله الكلام فلكل نوع من المعانى ما يناسبه من المبانى.
- تأثير الإشارة والاتصال اللفظى فى تحقيق محادثة ناجحة.

الرابع: صعوبات تعلم اللغة

وقـــد قسم الجاحظ هذه الصعوبات فمنها ما يعود للغة الهدف ومنها ما يعود للغة الأصلية ومنها ما يعود للمتكلم (المتعلم) نفسه بسبب جهله بأماكن اللغـــة، أو عمـــره ومدى حاجته لتعلم اللغة، كما أشار إلى كيفية تذليل هذه الصـــعوبات مـــن خـــلال الخـــبرة وطول الممارسة حتى تلين الألسنة باللغة الجديدة.

الألسنة خلاف هذا الحكم، ألا ترى أن السندى إذا جُلب كبيراً فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا ولو أقام فى عُليا تميم، وفى سُفلى قيس، وبين عجز هوازن خمسن عاماً. وكذلك النبطى القح يجعل الزاى سيناً ، فإذا أراد أن يقول زورق قال سورق، ويجعل العين همزة، فإذا أراد أن يقول مُشمعل، قال مشمئل(١٣٨).

فهذا من العادات اللغوية التى تتربى فى اللسان بفعل النشأة وطول الممارسة بما لا يدع للإنسان فرصة للتغيير. لذلك أمكن للعرب معرفة المولد الذى نشأ فى بيئة عربية من غيره فكان "النخاس يمتحن لسان الجارية إذا ظن أنها رومية وأهلها يزعمون أنها مولدة بأن تقول ناعمة ، وتقول شمس ثلاث مرات متواليات"(١٣٩).

فالخبرة اللغوية تحسن مخارج الحروف عنده بقدر لا يستطيعه حديث عهد بالعربية وكل ما أشار إليه الجاحظ من تغيرات وصعوبات فى النطق هى تغيرات صوتية مثل اللثغة وجعل الجيم زايا، والعين همزة والقاف كاف إلى غير ذلك وكلها عيوب مرتبطة بعادة اللسان وتمرس جهاز النطق على حروف لغة المتكلم الأصلية أو التى نشأ عليها، فصهيب بن سنان الرومى صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- برغم أنه من أصل عربى كان يقول: إنك لهائن، يريد إنك لحائن ، فهو ينطق العربية بلكنة الروم لأنه نشأ فيهم منذ صغره وتعلم لغتهم.(١٤٠).

خامساً: الخلاصة والنتائج

تناولت فى هذا البحث الفكر اللغوى الاجتماعي للجاحظ، الذى تشكل وفقاً للنظم الاجتماعية التى كانت سائدة فى المجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت، من خلال معرفته الموسوعية بالمجتمع الذى يعيش فيه، وبالرغم أن مؤلفات الجاحظ التى قامت عليها الدراسة وهى: "البيان والتبيين" و "الحيوان" و"الرسائل" ليست كتباً فى دراسة اللغة، ولكنه من خلال هذه الكتب تعرض لدراسة البيان عما فى النفس باللغة وبغير اللغة مثل: الإشارة والحال.

يقف بوظيفة اللغة عند مجال نقل الأفكار فإن الجاحظ أدرك أن للغة وظائف فوق ذلك مثل وظيفتها النفسية والاتصالية والتداولية.

هوامش البحث:

(١) الجاحظ: الحيوان، تحقيق/ عبد السلام هارون ١/٤٣،٤٢.
(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٥٥.
(٣) السابق: ١/٥٥.
(٤) السابق: ١/٤٣.
(٥) سورة: إبراهيم، آية ٤.
(٦) الجاحظ: البيان والتبيان ١/٧.
(٧) الجاحظ: الحيوان ٢/٥٤.
(٨) السابق ١/٤٨،٤٧.
(٩) الجاحظ: الرسائل رسالة النابتة ٢/١٩.
(١٠) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٧٩.
(١١) الجاحظ: الحيوان ٥/٢٨٨-٢٨٩.
(١٢) السابق ١/٤٥-٤٦.
(١٣) ابن خلدون: المقدمة ص٣٧٥.
(١٤) الجاحظ: الحيوان ١/٥٠.
(١٥) الدكتور/ محمد العبد: العبارة والإشارة، دراسة فى نظرية الاتصال ص ١٦٥-١٦٦.
(١٦) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٨٠.
(١٧) السابق : ١/٨٠.
(١٨) السابق ١/٧٩-٨٠.
(١٩) الجاحظ: الحيوان ١/٤٨.
(٢٠) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٤٣.
(٢١)الجاحظ: البيان والتبيين:١/٤٣.
(٢٢) السابق: ٣/٦١.
(٢٣) السابق : ٣/٦١.

(٢٤) السابق: ٦٣/٣.

(٢٥) ابـن جنى: الخصائص، تحقيق د. محمد على النجار ٤٥/١، المبرد: الكامل فى اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٢٣/١.

(٢٦) الجاحظ: البيان والتبيين ٥٧/١.

(٢٧) السابق: ٦١/٣.

(٢٨) ابن هشام: شرح شذور الذهب، تحقيق/ محمد محيى الدين عبد الحميد ص٢٨-٩.

(٢٩) ابن جنى: الخصائص :٢٤٧/١.

(٣٠)الجاحظ: البيان والتبيين ٢٤٦/١-٢٤٧.

(٣١) السابق: ٦٦/١.

(٣٢) السابق: ٥٧/١-٥٨.

(٣٣) السيوطى: المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ٣٢٩/٢.

(٣٤) الجاحظ: البيان والتبيين ٨٧/١.

(٣٥) Gumperz, John J..& Levinson, stephenc. Rethinking in linguistic. relativity P. 240.

(٣٦) الجاحظ: الحيوان ٤٥/١.

(٣٧) الجاحظ: البيان والتبيين ١٠٤/١.

(٣٨) السابق ١٠٥/١.

(٣٩) السابق ٥٧/١-٥٨

(٤٠) المبرد: الكامل فى اللغة والأدب، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ٢٤٦/١.

(٤١) الجاحظ: الحيوان ٥٠/١.

(٤٢) الجاحظ: البيان والتبيين ٤٤/١.

(٤٣) الجاحظ: الحيوان ٤٨/١.

(٤٤) السابق: ٢٨٩/٥

(٤٥) السابق ٢٠١/٥،٢٨٩.

(٤٦) Firth: J.R: Personality and Language in Society P.119.

(٤٧)الجاحظ: الحيوان ٧٦/١-٧٨.

(٤٨) د. تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية ص٥.

(٤٩) Wolfram, walt: Sociolinguistics.

(٥٠).الجاحظ : الحيوان ١/٤٤-٤٥.

(٥١) السابق ١/٤٢-٤٣

(٥٢) الجاحظ: البيان والتبيين .١/٩٠.

(٥٣) السابق ١/٤٢-٤٣

(٥٤) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٧٦.

(٥٥) ماريوباى : لغات البشر أصولها . طبيعتها. تطورها ، ترجمة د. صلاح العربى، ص

(٥٦) الجاحظ: البيان والتبيين :١/١٣٦.

(٥٧) ستيفن أولمان: دور الكلمة فى اللغة ، ترجمة د. كمال بشر ، ص ٢٣.

(٥٨) د. مصطفى لطفى: اللغة فى إطارها الاجتماعى،ص٤٤.

(٥٩) د.حلمى خليل: إرهاصات فى علم اللغة الاجتماعي عند الجاحظ ، ص١٠٢.

(٦٠) الجاحظ: البيان والتبيين ١/١٣٧.

(٦١) محمد أبو زيد : الاتصال، ص ٥.

(٦٢) Crystal, David : Linguistics P.253.

(٦٣) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٩٢-٩٣

(٦٤) السابق١/١٣٦.

(٦٥) ماريو باى: أسس علم اللغة ، ص٢٠٦، ٢٠٧.

(٦٦) الجاحظ: البيان والتبيين ١/١٤٤.

(٦٧) Labov, W. Sociolinguistic patterns P.

(٦٨) جورج يول: معرفة اللغة، ترجمة د. محمود فراج حافظ ، ص ٢٤٢.

(٦٩) سورة النعام ، آية ٩.

(٧٠) الجاحظ: الحيوان ١/٤٥.

(٧١) جورج يول: معرفة اللغة ، ص٢٤٢.

(٧٢) الجاحظ: البيان والتبيين ١/١٤٥-١٤٦.

(٧٣) الجاحظ : الحيوان ١/٢٨٢.

(٧٤) السابق: ٤/٢١-٢٢.

(٧٥) د. حلمى خليل: إرهاصات فى علم اللغة الاجتماعي عند الجاحظ ، ص١١٤.

(٧٦) الجاحظ : البخلاء ، تحقيق د. طه الحاجرى، ص ٤٠.

(٧٧) د. حلمى خليل: إرهاصات فى علم اللغة الاجتماعي عند الجاحظ ، ص١٢١.

(٧٨) الجاحظ :الحيوان ٤٥/١

(٧٩) Hoenisch, Steven M.:A Wittgensteinian Approach to Discourse Analysis.

(٨٠) المصدر السابق.

(٨١) نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، ص٢٩٣.

(٨٢) الجاحظ: البيان والتبيين ٧١/١، الحيوان ٢٨٨/٥.

(٨٣) الجاحظ :الحيوان ١/

(٨٤) الجاحظ : رسائل الجاحظ : رسالته فى صناعة القواد ، ص٢٦١....

(٨٥) د. حلمى خليل: ارهاصات فى علم اللغة الاجتماعي عند الجاحظ، ص١٢٤.

(٨٦) الجاحظ: البيان والتبيين ١٣/١٤٦،٢/١، الحيوان ٤٩١/٣٦٦،٤/٢، ١٩/٦.

(٨٧) جورج يول: معرفة اللغة، ترجمة محمود فراج عبد الحافظ، ص ٢٤٣.

(٨٨) الجاحظ: البيان والتبيين ١٤٦/١.

(٨٩) د. على عبد الواحد وافى : علم اللغة ، ص١٩٣.

(*) مثل كتاب "المرأة واللغة" للدكتور عبد الله الغذامى الذى يرى أن الرجل أحكم سيطرته على اللغة "التذكير إذن هو الأصل وهو الأكثر ولن يكون التذكير أصلاً إلا إذا صار التأنيث فرعاً ومن هنا فإن الفصاحة ترتبط بالتذكير.

(٩٠) د. حسام الخطيب : اللغة العربية ، إضاءات عصرية ، ص٢١٠.

(٩١) الجاحظ: البيان والتبيين ٩٦/١.

(٩٢) جورج يول: معرفة اللغة ، ترجمة د. محمود فراج عبد الحافظ ، ص٢٤٤.

(٩٣) الجاحظ: البيان والتبيين ٧١/١.

(٩٤) السابق ٨/٢-٩.

(٩٥) الجاحظ: البيان والتبيين ١٤٥/١.

(٩٦)الجاحظ: البيان والتبيين ١٣٧/١.

(٩٧)الجاحظ : الحيوان ٢١/٤-٢٢ .

(٩٨) السابق ٢٨٢/١.

(٩٩).الجاحظ: البيان والتبيين ٤٠/١

(١٠٠)الجاحظ: البيان والتبيين: ١/٧٢.

(١٠١) السابق: ١/٧٢.

(١٠٢) السابق :١/٧٣.

(١٠٣) السابق:٢/٢٠٤-٢٠٥.

(١٠٤) انظر مثلاً: ابن فارس: الصاحبى فى فقه اللغة ص٧٨، الزبيدى: لحن العوام ص٤ ، ابن الأنبارى: الأضداد ص٢٤، ثعلب: مجالس ثعلب ٢/٥٩٩، السيوطى: المزهر فى علوم اللغة ١/٣٠٤، الاقتراح ص١٩.

(١٠٥) د. على عبد الواحد وافى: علم اللغة ص١١،١٠.

(١٠٦) Slembrouch, Stef: what is meant by "discourse analysis?
Available on Line: "http//www.Isadc.org/web2/discourse.htm" 24/11/2002.

(١٠٧) الجاحظ: البيان والتبيين ١٣٩،١١٣٨.

(١٠٨) Tannen, Deborah: Discourse analysis.
Available on Line: "http//www.Isadc.org/web2/discourse.htm" 24/11/1999.

(١٠٩) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٩٣.

(١١٠) سورة الحج، آية ٢.

(١١١) سورة الأعلى، آية ١٣.

(١١٢) سورة إبراهيم، آية ١٧.

(١١٣) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٧٨.

(١١٤) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٧٨-٧٩.

(١١٥) الجاحظ: الحيوان ١/٣٤.

(١١٦) د. نهاد الموسى: الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية ص٧.

(١١٧) د. هادى نهر: اللسانيات الاجتماعية عند العرب ص١٣٠.

(١١٨) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٥٧-٥٨.

(١١٩) السابق: ١/٩٩.

(١٢٠)الجاحظ: البيان والتبيين ١/٥٨.

(١٢١) الجاحظ: الحيوان١/٩٤.

(١٢٢) الجاحظ: البيان والتبيين ١/١٤٤.

(١٢٣) Van dijk, A. Teun: Discourse as interaction in society P.3.

(١٢٤) الجاحظ: الحيوان ١/٣٣.

(١٢٥) Katie wales: a dictionary of stylistics P. 94.

(١٢٦) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٤٧.

(١٢٧) السابق :١/٤٧.

(١٢٨)الجاحظ: البيان والتبيين :١/١١٦.

(١٢٩) الجاحظ: الحيوان ٣/٧١.

(١٣٠) الجاحظ: البيان والتبيين ١/١٣٩،١٣٨.

(١٣١) Halliday, M.A.K & Ruqaiya Hasan: language Context and Text P.3.

(١٣٢) الجاحظ: الحيوان ٥/٢٨٩.

(١٣٣) السابق ٥/٢٨٩.

(١٣٤) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٧٠.

(١٣٥) الجاحظ: الحيوان ٥/٢٠١،٢٨٩.

(١٣٦) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٣٦٨.

(١٣٧) السابق:١/٣٦٨.

(١٣٨) السابق:١/٣٦٨.

(١٣٩) السابق: ١/٣٦٨.

(١٤٠) السابق: ١/٣٦٨.

(١٤١) دى سوسير: فصول فى علم اللغة العام، ترجمة /أحمد نعيم الكراعين، ص، رالف لنتون: الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، ترجمة/ عبد الملك الناشف، ص ٢٠.

المصادر والمراجع

أولاً المصادر والمراجع العربية:

ابن الأنبارى

- الأضداد فى اللغة (المطبعة الحسينية- القاهرة، ١٣٢٥هـ)

تمام حسان (دكتور)

- اللغة بين المعيارية والوصفية (دار الثقافة-الدار البيضاء، ١٩٨٠)

ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى)
- مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون (دار المعارف- القاهرة، ١٩٦٠م)
الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)
- البخلاء، تحقيق د. طه الحاجرى (دار المعارف- القاهرة، ١٩٧١م)
- البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون (مكتبة الحلبى- القاهرة، د.ت ط٢)
- الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون (مكتبة الخانجى- القاهرة، د. ت)
- رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون (مكتبة الخانجى- القاهرة، د. ت، ١٩٦٥)
ابن جنى (أبو الفتح عثمان بن جنى)
- الخصائص، تحقيق د. محمد على النجار (بيروت، د. ت، ط٢)
حسام الخطيب (دكتور)
- اللغة العربية، إضاءات عصرية (الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، ١٩٩٥م)
حلمى خليل (دكتور) – إرهاصات فى علم اللغة الاجتماعي عند الجاحظ
- (ضمن البحوث المقدمة فى ندوة اللسانيات واللغة العربية- بوخارست- سبتمبر ١٩٩٤م)
ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون)
- المقدمة (دار الشعب- القاهرة، د. ت)
الزبيدى (أبو بكر محمد بن الحسن)
- لحن العوام، تحقيق د. رمضان عبد التواب (دار العروبة- القاهرة، ١٩٦٤م)
السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن)
- المزهر فى علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين (مكتبة التراث- القاهرة، د. ت ط٣)

- الاقتراح فى علم أصول النحو، تحقيق الدكتور/ أحمد محمد قاسم (القاهرة، د. ت)

عبد الله الغذامى (دكتور)

- المرأة واللغة (المركز الثقافى العربى- بيروت، ١٩٩٧م)

على عبد الواحد وافى (دكتور)

- علم اللغة (دار نهضة مصر- القاهرة، ١٩٦٧م)

ابن فارس (أحمد بن زكريا)

- الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها، تحقيق السيد أحمد صقر(مطبعة عيسى البابى- القاهرة،١٩٧٧م)

المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد)

- الكامل فى اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته (القاهرة،م)

محمد أبو زيد (دكتور)

- الاتصال (مجلة عالم الفكر-المجلد الحادى عشر-العدد الثانى)

محمد العبد (دكتور)

- العبارة والإشارة (دار الفكر العربى- القاهرة، ١٩٩٥م)

مصطفى لطفى (دكتور)

- اللغة العربية فى إطارها الاجتماعي (معهد الإنماء العربى- بيروت، ١٩٧٦م)

نايف خرما (دكتور)

- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة (عالم المعرفة- الكويت- العدد التاسع،١٩٧٨م)

نهاد الموسى (دكتور)

- الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية (ضمن بحوث الملتقى الثالث فى اللسانيات- تونس، ١٩٨٥م)

هادى نهر (دكتور)

- اللســـانيات الاجتماعية عند العرب (دار الأمل للنشر والتوزيع- الأردن، ١٩٩٨م)

ابن هشام (جمال الدين بن هشام الأنصارى)

- شـــرح شـــذور الذهـــب، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد (القاهرة، ١٩٤٢م)

ثانياً: المراجع المترجمة:

جورج يول

- معرفة اللغة، ترجمة د. محمود فراج حافظ

رالف لنتون

- الأنثروبولوجـــيا وأزمة العالم الحديث، ترجمة عبد الملك الناشف (المكتبة العصرية- بيروت، ١٩٦٧م)

ستيفن أولمان

- دور الكلمة فى اللغة، ترجمة د. كمال بشر (دار غريب- القاهرة، ١٩٩٧م ط٢)

فردناند دي سوسير

- فصـــول فـــى علم اللغة العام، ترجمة د.أحمد نعيم الكراعين(دار المعرفة الجامعية -الإسكندرية، ١٩٨٥م)

ماريوباى

- أســـس علـــم اللغـــة. ترجمة د. أحمد مختار عمر (عالم الكتب- القاهرة، ١٩٩٨م ط٨)

- لغات البشر أصولها. طبيعتها. تطورها، ترجمة د. صلاح العربى (القاهر، ١٩٧٠م)

ثالثاً: المراجع الأجنبية

Crystal, David:- Linguistics
(Penguin Books- Australia, 1971)

Firth, J.R.:- Personality and language in Society
(Papers in linguistics- Oxford University Press, 1957)

Gumperz, John &Levinson,Stephen C:-Rethinking in linguistic relativity.
(Cambridge University Press, 1996)

Halliday, M.A.K & Ruqaiya Hasan:Language context and Text
(Oxford University Press, 1989)

Hoenish, Steven M.:-A wittgensteinian Approach to Discourse Analysis
Available on line: http://www.crticism.com/da/lu-da.htm

Labov, W.:-Sociolinguistic Patterns
(University of Pennsylvania Press- Philadelphia,1972)

Slembrouch, Stef:
What is meant by "Discourse Analysis"?
Available on line: http://bank.rug.ac.be/da/da.htm10/4/2001.

Tannen, Deborah:-Discourse analysis Available on line: "http:www. Isadc. org/web2/dicourse.htm" 24/11/1999.

Van Dijk, A.Teun:-Discourse as Interaction in Society
(Discourse studies- volume2. London- Sage, 1997)

Wales, Katie:-A dictionary of Stylistics
(Longman- London & New York, 1991)

Wolfram, Walt: -Sociolinguistics
Available on line: http://www.Isadc.org/web2/Socioling.htm 24/11/1999